قصص قصيرة جداً

عبد الرحمن مجيد الربيعي

١ ـ الكاستيل(*):

ألة التكييف تدور في فضاء المقهى، أبدو مكشوفاً لأنظار المارّة من موقعي المجاور للزجاج وأمامي طاولة أنيقة وضعت فوقها حقيبة أوراقي.

يطل المقهى على الشارع من ثلاث واجهات زجاجية. أما الجزء الخلفي فعبارة عن جدار لا نافذة فيه، ولكنّ فيه باباً صغيراً يمكن للزبائن أن يخرجوا منه ليستقلّوا سياراتهم التي ركنوها في المرآب الملحق بالمقهى.

هاأنذا أجلس صامتاً. لقد فرغتُ من قراءة صحيفة «الأنوار» وركّزت على افتتاحيتها إذْ سيأتي رئيس تحريرها حتماً وسأناقشه بما كتب فيها. وقرأت مجلة «الأسبوع العربي» كذلك وارتشفت فنجان قهوة «اكسبريس» ورددت على أسئلة النادل الذي كلما رآني بادرني بالسؤال عن مسار الحرب العراقية الإيرانية، وقبل أن يغادرني ليلبي طلبات زبائنه الآخرين لا بد وأن ينطق تلك الجملة التي سمعتها منه مراراً:

ـ قضيتنا لا تحلّ إلا بحلّ قضيتكم.

بدأت أنقر بسبابتي على الطاولة محاولاً تبديد ثقل الدقائق عليّ في انتظار أن يأتي أحد الأصدقاء. فالحياة في المدينة ماضية رغم الانهيارات الأمنية المتتالية ورغم ارتفاع سعر الدولار.

ثم تذكرت حقيبتي وفتحتها وبدأت بتقليب أوراقي المحشورة فيها.

أريد أن أُدوّن شيئاً، فعُرْي الأوراق يستفزّني. ولكن كيف لي أن استلّ واحداً من العناوين التي تتخبط في رأسي وأصلبه في كلمات بها أتنفس وأقارع جيوش الأسئلة التي تحاصرني؟

هذا المقهى أحبه، اعتدت الجلوس فيه، أدمنت هذا الكرسي من هذه الطاولة دون غيره، ويبدو أن هذه الطاولة لم تحظَ بعشق أحد قبلي لذا غالباً ما أجدها فارغة ولم يسبقني إليها أحد. وهناك طاولات أخرى تبدو وكأنها وُضعتْ خصيصاً لأشخاص معينين وإن جاؤوا ووجدوا من سبقهم إليها امتنعوا عن الجلوس وصاروا يدورون حولها إلى أن يغادر الزبون الطارئ.

أقطع بسيارتي حوالي الستة كيلومترات حتى أصله وسط زحام لا يصدق، سيارات تتداخل في بعضها، أصوات تزمير، شتائم، لا شرطة مرور، لا إشارات ضوئية، كل سائق يسلك الطريق الذي يعجبه وبالطريقة التي يرتئيها. ويبدو أنّ بعض الناس قد بدأوا يتآلفون مع هذا الوضع حتى إنّ البعض منهم يتعامل مع الزحام بهدوء يقرب من البلادة: ما إن يشتد الزحام حتى يطفئ محرك سيارته ويضع يده على خده منتظراً، فكأنه يواسي نفسه بالقول إن هذا الانتظار أفضل من النوم في عتمة الملاجئ خوفاً من القذائف المرعبة وما تحدثه من تخريب.

أوراقي مرتبة، اختارها من بين أفضل ما تعرض مكتبة «بويري بريس» المواجهة للمقهى تماماً، وكذلك الأقلام الناشفة التي لا أحبد الكتابة بسواها. أوراقي بيضاء كقلب طفل، تدعوني لأن أحرك القلم فوقها بعد أن أزحت عنه غطاءه وأمسكت فيه بيمناي.

أريد أن أكتب ولكنني عقيم رغم انصهاري، رغم اختصاري، ورغم أجنحة الأمل التي ترفرف في سماواتي المغلقة الخالية من أية غيمة حبلى.

لم أستطع. عصافير الكلمات طارت صوب البحر. فضّلَت التحليق قريباً من الشاطئ الخالي على الانغراس فوق أوراق خرساء في محاولة لإنطاقها.

لن أكتب، جمعت الأوراق وأعدتها إلى الحقيبة وطلبت فنجان قهوة «اكسبريس» آخر مع قنينة صغيرة من ماء «صحة».

هذه الأوراق خصمي الذي سأنازله وأغتاله بِحمْل من الكلمات أصُبّه عليه، حِمْل ليس من العدل أن أنوء به وحدي.

أما الآن فلأنعمْ بقهوتي وبصمت الصباح في نهار الأحد هذا الذي سيمر بهدوء كما يبدو. فمنذ الفجر لم أسمع دويّ قذيفة واحدة. المحاربون اختاروا أن لا يتحاربوا هذا اليوم. إنه يوم من السلام النادر. أنا الآخر قررت أن أرجئ حربي وأدع الأوراق في سباتها.

بيروت ١٩٨٧

٢ ـ سؤال:

لن أُطلق سؤالاً آخر فقد اقتنعتُ بلاجدوى الأسئلة ونحن في وقت البحث عن معنى لِكُلّ ما عشناه، لكلّ ما نعيشه، ولكلّ ما سنعيشه.

لكنْ هل يمكننا أن نبتلع نِصال الأجوبة دون أن نسمح لأفواهنا بترديد كلمات سؤال واحد فقط؟ كأن ننطق ببلاهة: «لماذا؟»

(*) اسم مقهى في منطقة «دوق مكايل» بلبنان.

ولكن لماذا الـ«لماذا» هـذه؟ من أين نبتتْ؟ ابتدأتْ؟ وماذا نريـد من ورائها؟

لا جـواب، لا معنى لـ«لماذا» هـذه بـل لكـل «اللماذات» الأخـرى السابقة وتلك التي ستأتي، أو الـ«لماذا» التي تلسع حلوقنا الآن. لماذا لا نطفئ كل «لماذا» وننغمس في هذا الفـوران الغامض الـذي ترزح له الدنيا حيث كل واحد له «لماذاه»؟

أتوقّفُ عن «السؤال ـ الحلم» و «الحلم ـ السؤال» ولن أمضي معه بعيـداً. الكلمات تلبط مُرَّةً في داخـلي، ولكنني غير قـادر أن أتقيـأهـا. أمعائي تصلّبت والأنفاس اختلجت في صدري.

كـوّرتُ قبضتي وسـددت لكمـة لفـك هـذه الـ«لمـاذا» اللعينـة فتساقطت أسنانها المدمّاة.

جاء حكم المباراة وأعلنني فائزاً في هذه المنازلة الغامضـة فزهـوْت بهذا الفوز وحلّقتُ على أجنحته.

بغداد ١٩٨٨

٣ ـ المسـألة:

ـ لا أدري كيف أقتلعُ وساوسي هذه! مازلتُ مؤمنة بـأنك رجـل لا يمكن تحديد مساحته ولا معرفة أبعاده، كأنك كل المسـافات وكأن ألف نداء يلاحقك، فكيف أجمعـك بين كفيّ الصغـيرين وأشربك مثل رشفة ماء؟

ـ هل كل هذا بتأثير الحمّى التي تعانين منها؟

ـ لا تهزأ بما أقول.

ـ لم أهزأ. بل أسألك فقط.

ـ انني منصتة إذاً.

ـ كنت آمـل أن يكون قـدومك سبباً في ضبط ايقاعي المتنـافـر وأن يحدث به الانقلاب المرجو.

كان وجهها مُشرعاً أمامه وهو معبّأ بابتسامة لم يعـرفها ولم يقـدّمها له وجه آخر.

مدّ يديه وأمسك بيديها المتشابكتين فوق الطاولة التي تفصل بينهما في جلستهـا المعزولـة، كانت حـرارتها عـاليـة ورغم هـذا غـامـرت وخرجت معه.

حمل كفيْها وقبلهما، فلَسَعَتْه حرارتهما.

بغداد ١٩٨٨

٤ ـ التي لا تعرف .. الذي لا يعرف:

كانت تردد جواباً على أسئلته:

ـ لا أعرف.

وكان يردد هو الآخر جواباً على أسئلتها:

ـ لا أعرف.

وها هما اللذان لا يعرفان يحاولان أن يواصلا الحوار، فقد يتحول إلى هذيان أو وضوح وجواب، إنهما لا يعرفان.

تحدثا من قبـل مراراً. في اللقـاءات، في التليفون، عـلى الورق، ولكنهما لم يعرفا شيئاً. وقد يتحدثان من جديد أو يكفان عن ذلـك، إنهما لا يعرفان. وسواء عرفا أم لم يعرفـا فإنـه لن يتغير شيء في هـذا الكـون، وستظل الشمس تشرق من جهـة الشرق وتغرب من جهـة الغـرب، وسيظل هـو وتظل هي مجـرد سؤالـين في غـابـة من البشر والهموم واللغات.

سؤالان لا جدوى من البحث عن جواب لهما.

تونس ١٩٩٠